ثقافة الغرب

وثقافة الشرق الادنى

للدكتور سطيوارت هنر . د.ف.
استاذ العلوم الاجتماعية بجامعة بيروت الاميركية

٣ — وجوه اخرى لتباين بين ثقافتي الغرب والشرق الادنى

(الميزة الشخصية مقابل الميزة غير الشخصية اي العامة) فرضنا الرابع في التباين بين الشعبين ان سكان الشرق الادنى ينظرون الى الحياة نظرة شخصية بينما الشعب الغربي يتبع الوجهة العامة غير الشخصية . وايضاحاً لهذا نقول انهُ لو دار حديث بين فرد من سكان الشرق الادنى ورجل من بلاد الغرب ثم سألتهما بعد حين عن الحديث الذي دار بينهما لاجابك الاول بصيغة المتكلم « سررت به جداً واستفدت منهُ كثيراً » وبالاجمال يكون وصف الامر بصيغة المتكلم . أما الثاني فيقول « كان الحديث لذيذاً مفيداً » ويكون وصف الامر بصيغة الغائب اي ان نظرة القائل غير شخصية بل عامة . ثم اذا أراد الاثنان طلب أمر من رجل يعتمد الاول في طلبه على العلاقة الشخصية ويظهر الحاجه بقوله « افعل هذا لخاطري » . بينما لا نجد أثراً لهذه الاتجاه في الثاني . « فافعل هذا لخاطري » تعبير غير مستحب في الغرب ولا يأتي بالفائدة المطلوبة . فان الغرب اذا طلب الى رجل ان يترأس عملاً خيرياً او مشروعاً اجتماعياً يعتمد في طلبه على اثارة عناية الرجل بالعمل المقصود واقناعه بصحة المشروع . والاختبار يعلمنا ان ابناء الشرق الادنى يعتمدون في عرض أمورهم على رجال الحكومة ، على واسطة تعارف بينهم وبين الموظف الذي يتعلق به الامر ويقوم بالتعارف صديق الطرفين إما بالرسائل وإما بالذات . اما الحالة في الغرب فعلى ضدّ ذلك . فان الغرب يشعر بأنهُ يدفع ضرائب وهذا يخوله الحق بأن يستفيد من معرفة الموظف ووقته ولذلك يذهب اليه في قضاء حاجاته دون واسطة . والولايات المتحدة تفاخر بأن حكومتها حكومة شرائع وليست حكومة رجال . والاحزاب السياسية في الغرب تقوم وتعمر طويلاً بصرف النظر عن القائمين بها وكثيراً ما تعيش زمناً طويلاً بغير زعيم . أما في الشرق الادنى فالاحزاب مرتبطة بزعمائها فتفور وتتور وفتأ لفور زعمائها

او غورهم . وكثيراً ما تموت الاحزاب بموت مؤسسيها وزعمائها. والحالة شخصية بحتة كذلك في الاعمال التجارية العملية في الشرق الادنى . فاذا تألفت شركة في الشرق الادنى كان أعضاؤها أفراداً قليلين جميعهم أقارب وأصحاب. أما الاعمال في الغرب فتقوم بها شركات واسعة النطاق ، في نظامها صفة عامة غير شخصية. خذ مثلاً شركة التليفون والتلغراف الاميركية، أعضاؤها يعدون بألوف الالوف لان كل حامل سهم شريك فكثير من الشركاء لا يعرف الواحد منهم الآخر ولا يعرفون مديري الشركة والقائمين باعمالها . والعاملون فيها يعدون بمئات الالوف وبعضهم لا يعرف رؤساء العمل اسماً او وجهاً ومع كل هذا تسير الاعمال بدقة ونظام بحسب تعليمات وجداول وقوانين مطبوعة . واذا جئنا لعدد الشواهد على اثبات هذا الرأي في الغرب ضاق بنا المكان والزمان

ولنبحث فرضنا هذا مسترشدين بالفرض السابق تحت عنوان الميزة التقليدية مقابل ميزة الاختيار الشخصي. فاننا اذا اردنا ان نعرف اي الامرين اكثر شيوعاً في الغرب او في الشرق الميزة الشخصية او الميزة العامة ، فالشرقي في حالة كهذه يعتمد على الثقات وفي كلامه عن الامر يسرد اقوالهم لانهم واقفون على ثقافة الشرق الادنى وثقافة الغرب ويمكنهم ان يقولوا القول الفصل في الموضوع . اما الغربي فيدرس الامر بنفسه فيضع مقياساً عن أوضاع كلٍّ من الشعبين تجاه الاعمال الشخصية والاعمال غير الشخصية ويقوم باحصاء يتناول عدداً وافراً من الامتين وللقيام بهذه التجارب قواعد وأساليب معروفة عن علماء الاجتماع المجرّبين

وهذا الدرس العلمي الذي يقوم به المدققون لمعرفة الحقائق واثبات فرض ما ، يظهر فساد ما يلجأ اليه الذين يتباحثون في الامور على أساس نظريّ فيسردون الامثلة والشواهد التي تدعم آراءهم وفي الوقت نفسه يسردون أمثلة تفسد آراء معارضيهم وبكلمة أخرى ينتقون من الحدّ الاقصى في كل من الحالتين امثلة يستندون اليها في أبحاثهم ويقدمونها بطريقة تفسد عليهم الوصول الى الحقيقة في معرفة مقدار التباين بين الفريقين اذا كان هنالك ثمت تباين . أما الطرق العلمية المبنية على ملاحظة الامور بدقة متناهية بالوسائط التي اشرنا اليها سالفاً في معرفة وضع الامة الواحدة تجاه حالة خاصة فتظهر فساد الحجج المبنية على امثلة شاذة مما يستند اليه الافراد لدعم رأي يأخذون به . وهذه الطرق العلمية تظهر ايضاً ضرورة مقابلة وضع الامة الواحدة بوضع الامة الاخرى تجاه حالة واحدة وذلك يسهل تعيين نوع التباين ومقداره . ولنا في التباين بين الاتجاه الى الثقات والاتجاه الى الاختبار الشخصي مثال نقيس على منواله لمعرفة صحة كل من الفروض الآتي ذكرها وهي تبين التباين بين الغرب والشرق الادنى

﴿ الميزة الاقطاعية مقابل الميزة الدمقراطية ﴾ فرضنا الخامس ان التباين الثقافي بين الشرق الادنى والغرب ظاهر في الصفات الاقطاعية الشائعة في الشرق الادنى والصفات الدمقراطية المنتشرة في الغرب مع بعض الشذوذ للقاعدتين. وقولنا الاقطاعية يعني ان الفرق الاجتماعي والبون الاقتصادي

بين أصحاب الاملاك والذين يعملون فيها شاسع وصارم وفي الوقت نفسه ينظر في كل من الفريقين ميل للبقاء حيث هو دون محاولة التغلب على هذه الحواجز . وقولنا الديمقراطية يشمل المساواة بين ابناء الامة الواحدة في الفرص التي تتاح لهم وهذا يتناول ايضاً المساواة بين الجنسين النشيط والضعيف ويتناول المساواة في جميع الحالات الاقتصادية بحيث تتاح في البلاد الواحدة فرص لابن الفلاح ان يتبوأ أعلى منصب حكومي في بلاده او ان يصير مدير اعمال تجارية أو اقتصادية كبيرة . ويتم هذا الامر بالتعليم المجاني العام الذي تقوم به الحكومات . وزبدة القول ان هذا التباين ظاهر في الثقافتين كل الظهور في عدم التساوي بين الرجل والمرأة وعدم المساواة اقتصادياً بين طبقات سكان الشرق الادنى . بينما المجال في الغرب واسع للمساواة بين الرجل والمرأة وفي جميع طبقات البشر . ولربما قائل يقول ان الديمقراطية التامة ليست من صفات المدنية الغربية على ما هو ظاهر في ايطاليا الفاشستية والمانيا النازية وروسيا البولشفية واليابان العسكرية كما وان الاقطاعية غير شاملة بعض اقطار الشرق الادنى وهذا واضح في نواح كثيرة من جبل لبنان حيث الاملاك ملك الفلاح يستغلها لحسابه . ولكننا نعود ونقول اننا في بحثنا هذا لا نتناول الحوادث الفردية ونقابلها الواحدة بالاخرى بل نقابل المعدلين الغالبين ، لان الحوادث الفردية قد تكون الحد الاقصى لاحدى الثقافتين ولا تظهر المعدل الذي توصلنا في الابحاث العلمية ونحن لا نود انتقاء حوادث فردية خصوصية يستعين بها الغير لاثبات نظرية ينادون بها

﴿ الجمود مقابل السير في التقدم الديني ﴾ نرضى السادس في التباين الثقافي يتناول تأثير المركب الثقافي الديني في تغيير الحالة الثقافية كلها . فالديانة في الشرق الادنى عامل قوي ولكنها قوة جامدة نوعاً وفي سكان الشرق الادنى ميل للمحافظة على الانظمة الدينية وإبقاء الطقوس على ما كانت عليه قديماً بحيث تكون مستقرة على حالة واحدة فلا تتحول تحولاً يقتضيه الحال لتساعد على حل المشكلات الاجتماعية الحديثة وما ينجم عن هذه المشكلات من الشرور . واذا نظرنا الى البواعث الفعالة التي دفعت بالبعض في الشرق الادنى الى محاربة الشرور والامراض الناجمة عنها او الى مكافحة التأخر الزراعي او البناء او الجشع الاقتصادي او غيرها من الامور التي لا يريدها الشعب نجد أنها لم تصدر من الكنيسة الارثوذكسية او الكنيسة المارونية او الهيئات الدينية الاسلامية او غيرها بينما الحالة في الغرب عكس هذا تماماً فزعماء كل ثورة ضد شرور الحرب او ضد التحكم الصناعي او الفساد الادبي في السينما وغير ذلك من الشرور التي تعرقل تقدم الامم هم رجال الدين والعاملون في الكنيسة كالكهنة والقسيسين والمرسلين وغيرهم . والمال اللازم لنجاح كل من المشروعات المذكورة يجمع من الشعب بواسطة الكنائس ولا دخل لجمعيات فردية او مؤسسات اخرى فيه . اجل ان في بعض كنائس الغرب محافظة قصوى ورد فعل

قويًّا ولكن الفرض الذي نحن في صدده يوضح لنا ان الكنيسة في الغرب عامل قوي في تسديد خطوات التطور الثقافي في مناهج التقدم بينما الكنيسة في الشرق الادنى جامدة وكثيراً ما تنتمي الكنيسة الجامدة في الشرق الى الكنيسة العاملة المندفعة في الغرب

﴿ الميزة الفردية مقابل ميزة السهولة لتأليف الجماعات ﴾ فرضنا السابع والاخير في التباين بين ثقافة الشرق الادنى والثقافة في الغرب ان العمل الفردي اكثر شيوعاً في الشرق الادنى منهُ في الغرب بينما العمل بواسطة الجماعات اكثر انتشاراً في الغرب منهُ في الشرق الادنى. ويعني بهذا ان اهل الغرب اقدر على ضم كلمتهم للعمل كجماعات موحدة الغاية والمرمى وانهُ بامكانهم ان يعملوا كجماعات زمناً طويلاً وان يكون عدد الافراد في الجماعة الواحدة وافراً. ولايضاح الامر نوجّه نظر القارىء الى الشركات التجارية في الشرق الادنى وهي كناية عن افراد قليلين اجتمعوا لمدة وجيزة بينما نرى الشركات الاقتصادية في الغرب تشمل العدد الوافر والوافر جدًّا من المساهمين وتكون آجالها طويلة مديدة وهذه الشركات إما ان تكون مجموع اصحاب رؤوس المال كشركة الفولاذ في الولايات المتحدة United States Steel Company والشركة المشهورة في تاريخ بريطانيا العظمى المعروفة باسم شركة الهند الشرقية East India Company وإما تكون مؤلفة من غير اصحاب رؤوس المال كالشركة التعاونية الانكليزية لبيع الجملة British Wholesale Cooperatives او تضم جميع ابناء البلاد كما هي الحالة في روسيا. فالبلاد الروسية كلها شركة اقتصادية واحدة. ومن يتصفح الكتاب السنوي الذي يصدر في الولايات المتحدة باسماء الجمعيات الاجتماعية يجد المؤلف كبير الحجم فيهِ الالوف من اسماء الجمعيات وكلها تبين ان الالوف من سكان البلاد قد اتحدوا معاً تحت اسم جمعية واحدة للعمل معاً نهوضاً البلاد باحدى الخدمات المعروفة عندهم. وهذا التباين في الميزة الفردية مقابل ميزة القابلية للعمل جماعات جماعات هو في رأيي وليد ثقافة خاصة شأنها شأن اخواتها الست المار ذكرها ولا دخل للفطرة في هذه الميزة بل هي تأثر بالمحيط والبيئة. فالاولاد في الغرب يربون منذ حداثتهم على العمل جماعات جماعات بطرق مختلفة تمد بالمئات فبعضهم يكلفون قبل ان يبلغوا الثامنة من عمرهم ان يترأسوا لجاناً تتعلق بصفوفهم المدرسية وللمقابلة نقول قمنا باحصاء في صف المبتدئين في القسم العلمي في الجامعة الاميركية في بيروت (Freshmen) لنعرف مدى هذا الاختبار في هذا الصف وعدده مائتان فوجدنا انهم تسنح لواحد منهم فرصة ليترأس لجنة ما مع ان المعروف انهم بوصولهم الى هذا الصف قد اجتازوا مرحلة واسعة من مراحل التهذيب العالي ومعدل العمر فيهم خمس عشرة سنة. والكل يعرف ما في هذه الناحية من التهذيب من الفوائد اذ تعلم اساليب تسيير الامور باحترام القرارات الصادرة من الاكثرية وخضوع الاقلية لقرار الاكثرية رغم الاختلاف والتباين في الرأي. ومعلوم ايضاً ان هذا غلبة على روح التحاسد

ومن يحصي عدد الجمعيات التي قامت في الشرق الادنى في السنوات العشر الواقعة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ويدرس معدل عمرها يجد الشواهد العديدة التي تتعلق بغرضنا هذا اعني به التباين بين العمل الفردي والقابلية للعمل جماعات جماعات . واذا نظرنا الى الفروض الاول والثالث والرابع المتعلقة بالتباين الثقافي ان في ادخال الصناعات او في ادخال تغيير ثقافي مرغوب فيه في الانتقال من الميزة الشخصية الى الميزة العامة غير الشخصية وكان نظرنا اليها بدقة واتقان لم نجد فيها تصادماً أو تعارضاً بل نراها تطابق الواحدة منها الاخرى وتلائم الثقافة الاولى الثقافة الاخرى وان في الامكان تشابهها وامتزاجها الواحدة منها بالاخرى

وقد يعجب القارىء لعدم ذكرنا التصادم بين وطنية الشرق في طلب الاستقلال واستعمار الغرب الدافع به الى الرغبة في التوسع والتسلط . والسبب في هذا الاعتقاد ان هذا ليس تباينا ثقافيا لانه ليس تبايناً في طرق التفكير والعمل في الحكومة . وهو ليس نزاعاً في الثقافة . هو نزاع بين جماعات في الشرق الادنى وجماعات في الغرب على من منها يتولى امر هذه الثقافة . فالغربيون وطنيان والجماعات في الشرق الادنى والغرب تود ان تكون مستمرة وترغب في التسلط على جماعات أخرى اذا واتى الامر مصالحها وفي الوسع تنفيذ هذه الرغائب وعليه يكون هذا النزاع بين فئة وطنية في الشرق الادنى وفئة وطنية في الغرب ولا دخل للتباين الثقافي في الامر . فهاهي تركيا مثلاً قد خلعت عنها كل ما يمت الى الاستعمار الغربي ولكنها بالوقت نفسه تعمل بكل قواها لتقبس الثقافة الغربية

ومع ان النزاع المذكور ليس نزاعاً بين الثقافتين نجد ان تسلط قوم على قوم آخرين بالاستعمار واسطة لنشر ثقافة الامة المتسلطة في الامة المتسلطة عليها . ولنا في اللغة خير برهان . ولا يسهى عن البال أن هذا التسلط السياسي بطبيعته يخلق جواً ملائماً للمعارضة يحول دون انتشار بعض الصفات الثقافية في الامة المتسلطة بين افراد الامة المتسلطة عليها ويساعد بالاكثر على ان تقتبس الامة المتسلط عليها ثقافة امة ثالثة غير استعمارية ومن هذا يتبين لنا ان التسلط الاستعماري يوجد طريقاً لبعض الصفات الثقافية ويقطع الطريق على البعض الآخر وعليه يجب ان ندرس هذا التصادم وهذا التلاؤم مستقلين عن ابحاثنا السابقة عوضاً عن درسها تحت مقابلة الميزة الوطنية بالميزة الاستعمارية لان الامر يقتضي الجلاء والوضوح في التفكير والبحث

٤ — اختلاط الثقافتين

﴿ المهارة الفنية في تحليل التصادم في الثقافة ﴾ عند وقوع تصادم في الثقافات يمكن اتباع مبادىء خاصة معينة لتحليل التصادم . هذا اذا كان من يهمهم الامر راغبين في التخلص من التصادم والنزاع . ولكي لا نشغل محلاً واسعاً في تطبيق هذه المبادىء على كل من النقط السالف ذكرها من التباين الثقافي نحيله على سردها بكل ايجاز

(١) — اذا ما كسن البالغون بعض الصفات الثقافية وحاولوا منعها من التطرق الى صفوفهم فعلى من يعملون على ادخال هذه الصفات ان يلجأوا الى الصغار فيدربوهم في الثقافة المنوي ادخالها وعلى ذلك لا يمضي وقت الاّ وتعم الثقافة الجديدة كل البلاد والامر معروف في كل العالم ان المدارس هي الواسطة الفعالة لاذاعة الثقافات ونشرها

(٢) — المبدأ الثاني للتخلص من النزاع والتصادم في ادخال صفات ثقافية جديدة لامة ما على من يهمهم الامر ان يعتمدوا على الوقت فلا يعملوا على نشر الامر بسرعة مستخدمين لذلك الاعلانات والدعايات . لان ذلك يساعد على ازدياد المعارضة بينما الامر يكون عكس هذا اذا سار هؤلاء الدهريناء وتركوا للوقت مجاله للعمل. مثلاً لو قام مجذو السفور بنشره بالسكينة والهدوء لانتشر بدون ضجة ومعارضة وان كانت هناك معارضة فبأقل ما يمكن منها . ولكن الامر يستلزم وقتاً أطول منهُ اذا هم فرضوه على الامة بالقوة. فالمرأة التي ترد ان تظهر سافرة يمكنها ان تكون مع السافرات سافرة وتبقى في محيط محبذي الحجاب محجبة او اذا شاءت نفي وسعها ان تنقص تخانة حجابها شيئاً فشيئاً فهي بهذا تخمد نيران كل رغبة للمعارضة او الثورة ضدها بينما تراها تثير من النزاع والضجة الشيء الكثير اذا وثبت وثبة واحدة من الحجاب الثخين الى السفور المطلق

(٣) المبدأ الثالث ان تربط الصفة الثقافية غير المرغوب فيها بحالة يسعى الجميع اليها . مثلاً اذا قاومت أمة الاقبال على لغة الامة المستعمرة بلادها فان افراد الامة المقاومة يقبلون على درس اللغة غير المرغوب فيها اذا جعلت واسطة للفوز بالمناصب الحكومية

(٤) المبدأ الرابع زيادة الامور المشتركة بين المتصادمين وتوسيع نطاقها وتقليل النقط التي يصير الاختلاف عليها . وما اصح الشعار الذي اتخذتهُ جمعية «الاخاء» في جامعة بيروت الاميركية لانقاص الاختلافات المذهبية في اعضائها والشعار المشار اليه سابقاً هو « ان العالم الذي تتقاسم بركاته لاوسع جداً من العالم الذي نختلف على ذراته » وبكلمة أخرى نقول في هذا المبدإ « ان تتمم غايات الجماعات المتصادمة غاية اوسع وأنفع هي غاية الغايات » ففي الاعمال البرلمانية فئتان لكل منهما وجهة نظر في درس الامور وتقريرها ولكن الخلاف بينهما يحسم بقرار الاكثرية النافذ على الاكثرية والاقلية معاً . فخضوع الاقلية لقرار الاكثرية في تقرير مركب ثقافي خاص وصل اليهم للبحث اما باستدعاء وإما بلائحة تشريعية هو واسطة للوصول الى غاية الغايات وهذه الواسطة معروفة باسم نظام الاكثرية ولكن الفريقين يستخدمان اختلافهما لغاية أوسع وقصد أفضل وهو الاستمرار في العمل للوصول الى قرارات عديدة بحسب نظام الاكثرية . وضد ما نرى الاقلية في الاعمال البرلمانية تنفصل عن الاكثرية فتخلق الابحاث البرلمانية فقل ان اعضاء البرلمان لا يؤمنون بهذه الغاية الواسعة ولا يعتقدون في النتائج العامة الفضلى

الناجمة عن نظام الاكثرية. فعلى رجال الادارة اولاً ان يوجدوا غاية الغايات وان يقدموها الى البرلمان بطريقة يعرفون انها تسع غايات الفئتين المتفقتين. ومع ان لكل فئة الحق ان تصادق على قبول بعض الصفات والمركبات الثقافية ورفضها بصرف النظر عن اشتراكها في بعضها فيجب ان يعرف المجموع الذي يدرس هذه الثقافات انه بحاجة الى الاتفاق على غاية الغايات لكي يحل كل خلاف وتصادم. ولايضاح الامر نضرب المثل التالي: اذا كانت غاية الغايات التقرير بان بناء الحياة البشرية يجب ان يكون اسياد محيطهم لا عبيده وقد تم هذا فما نراه من التباين والتصادم في الميزة التقليدية مقابل ميزة الاختبار الشخصي لا يطول امره لان الصفات العلمية تجلو للانسان خرجيًّا بانها تخوله سلطة واسعة على الطبيعة تعجز عنها اقوال الثقات

ثم اذا فرضنا ايضاً ان قد تم الاتفاق على ان تكون الشخصية واحدة من الغايات المنشودة — ونعني بالشخصية ان ترتقي النفس البشرية وتكون حرة كثيرة الاختبار وجزيلة الفائدة للمجتمع البشري وهذا اعلى ما يصبو اليه المرء في حياته البشرية — فاننا اذا درسنا نقط الخلاف بين الذين يقولون بالنظر الى الحياة من وجهة شخصية والذين يقولون بها من وجهة عامة غير شخصية وفهمنا الامر بدقة واتمان مسترشدين بالفرض الذي قلنا قد تم الاتفاق عليه من حيث الشخصية السامية كان في وسعنا ان نقرب بين وجهتي نظر الفريقين وقد يتسنى لنا ان نوفق بينهما توفيقاً تامًّا. فهذه الغايات المنشودة كسلطة المرء على محيطه وإنشاء شخصية مولدة مفيدة، هي القانون الذي يسير عليه التقدم والنجاح وهي المقياس الذي به نعرف الزمن الذي به تصير الصفات الثقافية تقدماً ونجاحاً في الامة التي تصبو الى هذه الغايات الفضلى

فالمسألة امامنا ان يتم الاتفاق على تعيين غايات فضلى اكثر عدداً من المعروف وتحديدها قبل اضاعة الوقت وبذل الجهود في درس امور ثانوية هي التباين في الثقافات وهذا ما يضع امامنا السؤال التالي: «ما هي الغايات الفضلى التي يمكن اتخاذها واسطة للوصول الى أبعد مدى ممكن من الاتفاق بين الشرق الادنى والغرب». وقد اشار بعضهم الى الغايات التالية كالغايات الفضلى المنشودة «ارادة الله» «الشخصية السامية» «ان يحصل اكبر عدد ممكن على اعظم قسط من السعادة» «الحصول على افضل حالة واوفر ثروة ممكنة والوصول الى ابعد مدى من الرغد والرفاهية والفوز بأوفر قسط من المعرفة في طريقة الحياة لتحقيق معين»

لم نقصد فيما جئنا عليه من الباحث ان نحل المشكلات الظاهرة في مقالنا ولكن قصدنا ان نبث في قارئي مقالتنا هذه التأمل العميق في هذه الامور الحيوية والمعروف ان حل المشكلات الناجمة عن التصادم في الثقافات وكيفية تلاؤم الثقافات المختلفة لا يكون عن طريق الاقوال بل يتم بما يفكر فيه اصحاب هذه الثقافات ويعملونه

[نقلها جورج الاشقر من الانكليزية]